

سلطة النص الديني على العمارة الإسلامية

نور الدين بن عبد الله

جامعة الجلفة- الجزائر

مقدمة

العمارة نتاج تفاعل الإنسان بتقاليده وإمكاناته مع ظروف البيئة المحيطة به، فكما خضع الإنسان لسنة النشوء والارتقاء في أفكاره ومفاهيمه وأذواقه، متأثراً بالبيئة الطبيعية وبالشعور الديني والتقاليد، والوسط الاجتماعي، فكذلك تطور إنتاجه الفني، واختلفت مظاهره وخصائصه، باختلاف الزمان والمكان، إلا أنه ورغم الاختلاف، فأوجه الشبه تظل كبيرة بين فن وآخر في عصر من العصور، ذلك لأن التأثيرات الفنية تتسرب بسهولة عبر الحدود الفاصلة بين البلدان والشعوب، بسبب تنقل الأفراد، أو نتيجة الاحتكاك الدائم وتبادل الخبرات والمعارف.

وعلى هذا الأساس كانت العمارة، من بين الفنون الأكثر تأثراً بالإنسان وبيئته، وقد تدخلت عدة عوامل لإعطاء الشكل النهائي للعمائر الإسلامية، فالمستقرى للعمارة الإسلامية، يجدها كونا عامرا بالمعاني الحقيقية لعمارة الأرض، وذلك من منظور رؤية الإسلام للعمارة، حيث أرادها الشارع الحكيم، أن تحافظ على الكليات الأساسية* (مقاصد الشريعة)، فقد حثت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، على عمارة تخدم البشرية، دون أن يחדش بديع صنع الله في الطبيعة، هذه المعاني وغيرها تجلت في جميع نماذج العمارة الإسلامية، مراعية في ذلك خصوصية المكان والزمان، ولهذا جاءت العمارة تجسيدا لمبادئ الدين الإسلامي، أينما حل.

وعلى هذا الأساس، فقد اعتبر الدين من بين أهم العوامل التي ساهمت في الشكل النهائي للعمارة الإسلامية، فما هي أهم النصوص الشرعية التي وجهت المعماري المسلم، أثناء عملية الإنشاء وما هي أهم المعالجات المعمارية، التي جاءت نتيجة الامتثال لتلك النصوص الدينية؟.

أ- مفهوم العمران الإسلامي

لقد تعرض علماء الإسلام الى ظاهرة العمران، وعرفوها بأسماء عديدة، فذكرها ابن خلدون على أنها الاجتماع البشري، وأنها مرتبطة بفطرة الإنسان، فقال: (..الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، الذي هو المدنية في اصطلاحهم

نور الدين بن عبد الله

وهو معنى العمران..ثم إن هذا الاجتماع، إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم⁽¹⁾.

كما تعرض لها الفارابي عبر مفهوم المدينة، وصنفها على أساس قيمها الأخلاقية، حيث قال: (فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على الأشياء، التي تنال بها السعادة...والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها، على تميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه)⁽²⁾.

أما عند الفقهاء، أمثال أبي حنيفة، فقد كانت تعتبر المكان الذي تقام فيه الحدود، وتؤدي فيه صلاة الجمعة، ولذلك فهي ترتبط بمسألة العدالة والقضاء، والشعائر الدينية الجماعية، وهذه التعاريف كلها، تشير الى اعتبار الظاهرة العمرانية البشرية، لا تميز حضارة دون أخرى، بل يشترك فيها الإسلام مع غيره. فمن هنا نتساءل عن حقيقة العمران الإسلامي، ومدى صحة التسمية، فالمعروف انه ليست هناك أدلة قاطعة، تفصل لنا نموذج المدينة الإسلامية، وكلما هنالك هو إشارات متفرقة، مثل النهي عن الإطلاع على بيوت الغير، وتحديد الطريق، والتفريق بين الجنسين، أو اجتهادات ظرفية.

ولعل أقرب تعريف للعمران الإسلامي، هو ذلك المحيط الذي يستجيب للمقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وليست المدينة القديمة في بلداننا الإسلامية، سوى صورة محددة في الزمان والمكان لكيفية الاستجابة لتلك المقاصد، مما يؤهلها الى حد ما لاستنباط الحلول، لمقتضيات الحياة المدنية المعاصرة في ظل الشريعة الإسلامية⁽³⁾.

ب- مفهوم المدينة الإسلامية

ورد عند ابن منظور في اللسان، أن المدينة من الفعل مدن(بالفتح)، فيقال مدن بالمكان، أي أقام فيه والمدينة هي الحصن يبني في أصطمة الأرض، وكل أرض يبني بها حصن في أصطمتها فهي مدينة⁽⁴⁾.

وكلمة مدينة ترجع أصلا الى كلمة(دين)، وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية، وعرفت المدينة عند الأكاديين والآشوريين بالدين، أي(القانون)كما أن الديان يقصد بها في اللغة الآرامية والعبرية(القاضي)، وإضافة الى ذلك فإن مصدرها في الآرامية(مدينتا)، وتعني القضاء، وتوافق هذه التفسيرات ما ورد في القرآن الكريم، من أن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ مدينة، كان عليها حكام وملوك، وجاء تمييز المدينة عن القرية في القرآن الكريم، على أساس سمة التقاضي، وقد أورد البخاري وابن حنبل،

الإستفهام التقريبيّ عند علماء الإعجاز القرآني

حديثاً عن جابر بن عبد الله: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يوم القيامة يحشر العباد-أو قال الناس-حفاة عراة، عزلاً ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب، أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة، ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصها منه...⁽⁵⁾ كما أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه⁽⁶⁾.

وحسب الفارابي، فالمدينة تدرج، تحت ما يسمى بالاجتماع الكامل، حيث أن الإنسان مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة، يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم، يقوم له كل واحد منهم، بشيء مما يحتاج إليه، ولهذا فهو يقسم المدينة، إلى فاضلة، تتحقق فيها سعادة الناس، ومدينة جاهلة، تحقق التعاسة، لأهلها.⁽⁷⁾

ويدعم هذا الكلام، ابن خلدون بقوله: (الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع، الذي هو المدينة، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله، سبحانه وتعالى، خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها، وبقاؤها، إلا بالغذاء، وهدها إلى التماسه، بفطرته، وبما ركب فيه، من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر، قاصرة على تحصيل كل حاجاته...⁽⁸⁾

والمدينة، هي مسكننا الطبيعي، حيث تكونت بشكل عضوي على غرار القرية، متنامية حول ساحة، أو شارع رئيسي، بشكل بطيء، يستجيب لحاجات الأجساد، والنفوس⁽⁹⁾.

كما تدرج المدن، في عملية إعمار الكون، والاستخلاف في الأرض، وقد ارتبط هذا كله، بالهدف الأسى من الخلق، وهو عبادة الله عليها، فقد جاءت الآيات، والأحاديث النبوية، دالة على ذلك، حيث قال تعالى في سورة الملك: (قل هو الذي ذرأكم في الأرض، واليه تحشرون). وقوله أيضاً: (والأرض مددناها، والقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها، من كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معاش، ومن لستم له برازقين)، ومن هذا المنظور، فقد حث الإسلام، على تعمير الأرض وإصلاحها، فجاءت هذه النظرة للتعمير، حافزاً للتسابق في تعمير هاته الأرض وفق المفهوم الإسلامي؛ وفي أجواء هاته القيم السامية، نشأة المدينة الإسلامية، التي حوت هذا الاجتماع، الموثق بعرى التآخي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصداقاً لقوله تعالى من سورة التوبة:

نور الدين بن عبد الله

(والمؤمنون والمؤمنات، بعضهم أولياء بعض، يأمرزون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله، ورسوله، أولئك سيرحمهم الله. إن الله عزيز حكيم)؛ وهذه الروح، نال العمران في الفكر الإسلامي القسط الوافر.

فالمدينة هي شكل من أشكال التجمعات البشرية، يتسم بالكثافة، والتنظيم، والتعقيد، وهذا الحجم من التجمع يتولد عنه تعدد وتنوع الحاجات والوظائف، والنشاطات، وقد احتل هذا الموضوع جزءاً أساسياً في النظرية الخلدونية للعمران حيث صنف العمران إلى عمران بدوي و عمران حضري. أما الفارابي فيستعمل مفهوم الاجتماع الناقص والاجتماع الكامل، فالكامل للدلالة على تجمع المدن والأمم أما الناقص فللدلالة على تجمع القرى⁽¹⁰⁾؛ وفي هذا الصدد يقول: (...والمجتمعات الكاملة، ثلاث مراتب، فأرقاها مرتبة، اجتماع العالم كله في دولة واحدة، وتحت سيطرة حكومة واحدة، وأقل منها كمالات اجتماع أمة في جزء من المعمورة، تحت سيطرة حكومة مستقلة، وأقلها جميعاً في الكمال، اجتماع أهل مدينة في جزء من الأمة، تحت سلطة رئيس، والمجتمعات الناقصة ثلاث مراتب كذلك، فأقلها نقصاً وأدناها إلى المجتمعات الكاملة، اجتماع أهل القرية، واجتماع أهل المحلة، وأكثر منها نقصاً، اجتماع أهل السكة، وهي جزء من المحلة، وأحطها جميعاً منزلة، اجتماع أفراد أسرة في منزل...) (11).

والمستخلص من هذا الكلام أن نموذج الاجتماع الكامل، هو النموذج الإسلامي القائم على مبدأ الخلافة الواحدة، المحققة لأمر الله، على منهاج الخلافة الراشدة، وكل هذا لخدمة الإنسان، فالمدينة الفاضلة في رأي الفارابي، هي التي تتحقق فيها سعادة الأفراد، على أكمل وجه، ولا يكون ذلك، إلا إذا تعاون أفرادها على الأمور التي تنال بها السعادة.

وفي هذا يقول: (...فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على الأشياء، التي تنال بها السعادة... والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح، الذي تتعاون أعضاؤه كلها، على تنميط حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه...) (12)، فكل هاته الشروط التي وضعها الفارابي لتحقيق سعادة الإنسان، اختصرها الدين الحنيف في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)، وهو المبدأ الذي قام عليه الفكر العمراني في الإسلام، ذلك أن الغاية من الاجتماع هو عمارة الأرض، وتحقيق الاستخلاف الحقيقي فيها.

الإستفهام التقريبي عند علماء الإعجاز القرآني

و إذا كان الاجتماع يحتاج إلى مكان، فكلاهما يحتاج إلى عمران؛ والعمران لا يستتب إلا بالنظام، والأمن، ولهذا كان من الضروري، أن يحتكم الاجتماع الناجع الى راع واحد حكيم، سماه الفارابي، رئيس المدينة الفاضلة، والأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض، وقد حدد له خصالا، يجب عليه أن يستوفيها، منها: أن يكون كامل الخلقة، وجيد الفطنة والذكاء، ومحباً للعلم والتعلم، ثم أن يكون محباً للصدق وأهله، مبغضاً للكذب وأهله.⁽¹³⁾

وقد جاءت المدينة المنورة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، من بعده، تجسيد لهذا الفكر العمراني، وكانت بحق نموذج المدينة الفاضلة، التي ابتغاها الإسلام، وعبر عنها الفارابي، في كتاباته، ثم تطورت المدينة واتسعت، مع المحافظة على الخطة الأساسية، في إقامة المدينة الأولى في الإسلام. إلا أن اتساع المدن في العالم الإسلامي، لم ينتج عن تخطيط مسبق، بالمعنى المستخدم اليوم، كما لم تشرف على هذا الاتساع، سلطة مركزية، ولكن الذي حدث، هو تراكم لتصرفات السكان، بمعنى أن نمو المدن، وتشكل البيئة التقليدية، نتج عن قرارات السكان، وفي العادة هي قرارات، ذات مستوى صغير، كبناء بيت في مزرعة خاصة، أو إحياء أرض مجاورة وهكذا، إلا أن هذا النمو لم يكن عشوائياً وفوضوياً، بل كان مبنياً على مبادئ معينة⁽¹⁴⁾.

ولقد أثر عن المسلمين الأوائل، حين كانوا يفتحون البلدان، أنهم كانوا يسكنون مع أهلها، ويشاركونهم في الأسواق، والأماكن العامة، غير أنهم كانوا حريصين، على إعطائها الصفة الدينية، بأن يوجدوا فيها أماكن للعبادة (المساجد)، كما عملوا على إقامة العدل، وإزالة مظاهر الشرك والردائل.⁽¹⁵⁾

وفي خضم دراسة المدينة الإسلامية، ظهرت لنا نزعتان أساسيتان⁽¹⁶⁾:

1. النزعة الأولى: أنصارها أساساً من المدرسة الاستشراقية القديمة، الذين لم يروا في المدينة (الذين اختلفوا في تسميتهم لها، بين إسلامية وعربية وشرقية)، إلا سككها الضيقة، وتعدد أزقتها و حاراتها الملتوية كالتواء المتاهة، ومسكنها المنغلقة على نفسها، ولم يروا في المشهد الحضري لهذه المدن، إلا مشهداً مضطرباً فوضوياً غير منظم، تتداخل فيه الكتل السكنية، القليلة التهوية، بسبب نوافذ دورها المطلة على الداخل، فأصحاب هذه النزعة لم يروا في المدينة سوى السلبيات، ولم يحاولوا فهم المجتمع وقوانينه (الدينية والاجتماعية..)، فمن دونها مجتمعة، لا يمكن فهم المدينة الإسلامية وعمارتها.

نور الدين بن عبد الله

2. النزعة الثانية: وهي أكثر موضوعية، حيث ترى أن المدينة الإسلامية ليست مجرد تجمع فوضوي للأحياء السكنية، بل إنها تنظيم للمجال الحضري، يأخذ بعين الاعتبار، الرغبات والحاجيات الحقيقية للسكان، ثم إن ما بدا للبعض، أنه غير مرتب لعله نمط من التنظيم، الذي يختلف عن التنظيم الهندسي، والذي له جمالياته الخاصة. وتبلور مصادر التراث الإسلامي في عصوره المتعاقبة، ما انتهى إليه الفكر الإسلامي في مجال تخطيط المدن، وتعكس المصادر العديدة التي كتبت عن تاريخ المدن وخططها، كثيراً من الحقائق التي توضح إلى حد كبير التطور الفكري المتعلق بتخطيط وإنشاء المدن الإسلامية.

كما تختلف المدن وتتنوع باختلاف وظائفها، وظروف إنشائها ومواقعها، والمؤثرات التي تؤثر على نموها وتطورها.⁽¹⁷⁾

وقد حدد المنظرون لل عمران الإسلامي، شروط إقامة المدن، وما يجب أن يتوفر فيها، وفي هذا يقول ابن خلدون: (... اعلم أن المدن، قرار تتخذها الأمم...ولما كان ذلك القرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه، دفع المضار، بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع، وتسهيل المرافق لها؛ فأما الحماية من المضار، فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعدة، من الجبل، وإما باستدارة بحر، أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها...ومما يراعى في ذلك، للحماية من الآفات السماوية، طيب الهواء، للسلامة من الأمراض)⁽¹⁸⁾. والملاحظ من هذا الكلام، أن ابن خلدون، قد حدد أهم الشروط لسلامة المدن، والمتمثلة في مايلي:

1. توفر المدينة على المرافق الضرورية للسكان، من بيوت وغيرها، ذلك لأن المدن، هي نتيجة لتurf، وتطور عمران إقليم ما.
2. منعة المدينة، من خلال اختيار الموقع المنيع، لإقامتها (هضبة، جبل)، وإحاطتها بالأسوار، التي تزيد من منعتها واستعصائها على الغزاة
3. توفير المياه الصالحة، الكافية لسد حاجات الناس ودوابهم.
4. سلامة هوائها من كل ما يعكره، لضمان سلامة الأبدان، والعقول، ومنه سلامة المدن.

وفي هذا المجال، أورد المقرئزي، أثناء حديثه، عن مدينة الفسطاط، فقال: (... وإذا دخلت مدينة، فرأيتها ضيقة الأزقة، مرتفعة البناء، فاهرب منها، لأنها موبوءة..⁽¹⁹⁾).

الإستفهام التقريبي عند علماء الإعجاز القرآني

وصفوة القول فإن المدينة الإسلامية، هي التي تحقق السعادة لسكانها، حيث يراعى فيها، الحفاظ على القيم الأساسية (الربانية، الإنسانية، البيئية). ومما سبق ذكره، نصل الى سؤال جوهري، مضمونه ما هي أهم النصوص الشرعية التي ساهمت في تشكيل العمارة الإسلامية؟.

ج. دور النص الشرعي في شكل العمارة الإسلامية:

تلعب التعاليم الدينية دورا مهما في توجيه حياة الإنسان، ويظهر ذلك جليا في شكل الفنون، ذلك لأن البعض يذهب الى أن الدين هو أصل نشأة الفنون. ومن هذا فقد اصطبغ الفن الإسلامي بسمات الدين، ذلك لأن الفنان المسلم عليه أن يلتزم بتعاليم الدين الإسلامي، إلا أن التزام الفنان المسلم بالمعتقد الديني لم يسلبه شخصيته، ولم يأسره في شكل جامد متحجر، كما أنه لم يمنعه التطور⁽²⁰⁾.

وبفعل امثال الفنان المسلم للتعاليم الدينية، اتجه الى عالم الزخرفة المجردة، فقد عبر من خلال الزخرفة عن الفكرة المطلقة التي كانت محور الكون، وقد لجأ لتكرار العنصر الزخرفي (الأرابيسك) تكرارا بلا كلل ولا ملل، ليعكس التسبيح وما نردده لفظا وانفعالا، ونحن نسبح باسم الله في الذكر مئات المرات (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)⁽²¹⁾.

ومن هذا المنطلق جاءت العمارة الإسلامية تجسيدا للفكر السائد، الذي نصت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، سعيا منها لتنظيم حياة المسلمين وشؤونهم، ولهذا عمل الفقهاء على تنظيم الجانب المعماري للمسلمين، فنشأ بذلك فقه العمارة الإسلامية الذي اتخذ من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ضرر ولا ضرار) قاعدة له وقد ترك النص الشرعي تأثيرا بالغا، على شكل العمارة الإسلامية، يمكن تلخيصه في مايلي:

1) شكل المباني

لقد بنيت الوحدات في المدينة الإسلامية، وفق الشكل المتضام⁽²²⁾، فجاءت متقاربة بعضها من بعض، إذ لا يمكن التمييز بين بيوتها إلا من خلال الأسطح، وقد جسد هذا الشكل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحيمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)، وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا).

فالأحاديث السابقة تدل على ضرورة التكافل، والتعاون بين المسلمين، ولهذا انعكس هذا المبدأ، على الحياة الاجتماعية للأهالي، والتي تتميز بالتعاون في كل مجالات

نور الدين بن عبد الله

الحياة، وعليه جاء شكل النسيج المعماري يجسد هاته المعاني، حتى انه لا يمكن التفريق بين بيت الفقير والغني، ذلك لأن الواجهات في العمارة الإسلامية، جاءت صماء لا زخرفة فيها.

كما يظهر تأثير العامل الديني في مركز المدينة، حيث اعتبرت الجوامع مركزا للمدينة الإسلامية، وعلى هذا الأساس، كانت كل الطرقات والأزقة تؤدي إليه، وذلك لتسهيل وصول الناس الى المسجد، كما لعب المسجد الجامع داخل المدينة دورا أساسيا، فكان مركز لبحث الشؤون السياسية، والاجتماعية، والدينية والتربوية، وعلى هذا الأساس عد المسجد الجامع، النواة الأساسية في تخطيط المدينة الإسلامية، وذلك اعتبارا مما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما دخل المدينة المنورة⁽²³⁾.

(2) تخطيط الدور

لقد ارتبط تصميم المسكن بالتحاليم الإسلامية التي تنظم حياة الأسرة، وأسلوب معيشتها، ومن ذلك حرمة المسكن التي تعبر عن حرمة الإنسان، فلهذا حرم الشارع الحكيم كشف عورات البيوت.

حيث يقول الله تعالى في آداب الزيارة من سورة النور(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم، حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) و انطلاقا من هاته التحاليم الدينية، اتخذ المعماري المسلم، عدة إجراءات كان من أهمها:

ب-1 المدخل المنكسر:

لعل أهم تأثير لأحكام البناء على المداخل، يظهر في تنكيها⁽²⁴⁾. وهو ما يعطي المدخل المنكسر، ويعرف كذلك باسم الباشورة. حيث يقال أن أصوله قديمة، ذلك أن أقدم نموذج له يوجد في شونة الزبيب، ويرجع الى العهد الفرعوني، حيث يؤرخ بين سنتي 1788-2625 قبل الميلاد⁽²⁵⁾.

وعموما فمدخل الدار يمثل، نقطة الانتقال بين عالمين منفصلين(الخارج والداخل)، ولذلك فقد حظيت المداخل باهتمام كبير في تصميمها، فكان المدخل المنكسر، هو الحل بحيث لا يسمح برؤية ما بالداخل كما أن الانكساريكون حسب مستوى معيشة العائلة، مضاعفا أو بسيطا⁽²⁶⁾.

وعلى هذا الأساس وضع الفقهاء، ضوابط لفتح الأبواب الخارجية، تهدف الى منع الإطلال على ما بداخل بيوت الجيران، وقد صنفوا المسألة في ثلاث حالات حسب وضع الباب، في الشارع النافذ الواسع والشارع النافذ غير الواسع وفي غير النافذ، ومن

الإستفهام التقريبي عند علماء الإعجاز القرآني

ذلك ما أورده أحد الفقهاء، أنه إذا كان الزقاق سالكا نافذا يمكن للمالك أن يفتح ما شاء من الأبواب، لأن الباب معرض باستمرار للمارة، أما في حالة الزقاق الضيق فلا يجوز للجار أن يفتح قبالة جاره، ولهذا قال العديد من الفقهاء بضرورة تنكيب المدخل. كما يظهر لنا تأثير الدين في عمارة البيوت، وذلك من خلال وجود الصحن المركزي الذي يعد مركز البيت، فالصحن بهذا الشكل في العمارة الإسلامية، يمثل ضرورة وحدة المسلمين، حول قائد واحد وإمام واحد، تستلهم منه الأمة منهاج حياتها العقائدية والدينية، وقد جسد هذا النموذج في المدينة الإسلامية، الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا الأساس جاء المسجد في قلب المدينة الإسلامية، وبهذا جاء الصحن في عمارة البيوت، العنصر الذي يعمل على جمع كل وحدات المسكن، كما يمثل نقطة التقاء الأرض بالسماء، وذلك من خلال تمكين ساكني المنزل من تأمل أجرام السماوات، فيعظم في نفوسهم الخالق، بعظمة مخلوقاته.

(3).تحصين المدينة الإسلامية:

إن الحياة في فطرتها تقوم على ثنائيات متغلبة يدفع بعضها بعضاً، فالخير يدفع الشر، والحق يغالب الباطل، والموت يصارع الحياة، وكذا الأمر بين الإسلام والكفر، والعدل والظلم، والإعمار والإفساد والحرية والاستعباد وهلم جرا. وصدق الله العظيم في قوله الحكيم: (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (27).

فلقد جاءت الآية في سياق التعقيب على صراع نبي الله داود ممثل الخير وداعيته، مع "جالوت" زعيم الشر وحامل لوائه، كما يفهم من قوله سبحانه (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)، فقيام الملك العدل وامتلاك الحكمة والعلم، أمور ترتبط بشكل أو بآخر بقتال الظلم ودفعه، وكأنه لا حكمة ولا علم ولا ملك، مع ترك الظالمين وظلمهم يعدون على المؤمنين، لأن في ذلك الترك إفساد في الأرض.

ومن ثم جاء التعقيب الإلهي، على قصة القتال الخاصة المحددة بين "داود" عيه السلام و"جالوت" تعقيباً عاماً يكشف عن حقيقة هامة تقول: إن رفع الإفساد في الأرض، بغض النظر عن فاعله، لا يكون إلا بدفعه وقتاله وصرعه، والتغلب عليه. وإن

نور الدين بن عبد الله

الدفع نفسه، وما قد يتلوه من علو الحق، ورفع للفساد، إنما هو فضل الله على العالمين.

إن آية " الدفع " هذه، تنتقل بنا من الخاص إلى العام، لتقرر سنة الله الكونية والحياتية، التي تنظم العلاقات بين مكونات الحياة والكون، هذه العلاقات القائمة على المدافعة والمغالبة؛ وهي تسكن طرفي المعادلة التي نلخصها عادة بمعادلة (الخير والشر).

وجوهرها يقول: إن تخلفت المدافعة، بسبب سكون الخير وأهله، عم الفساد والإفساد، وملك وحكم واستغلظ واستعصى، وربما تأله ونادى لنفسه بالربوبية، ومن ذلك جاء التأييد الإلهي بقول الله سبحانه: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذِمَتْ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) ⁽²⁸⁾.

وقد عبرت فلسفة المدافعة في الفكر الإسلامي، عن الهاجس القديم للإنسان، وهو الأمن والأمان، فقال تعالى: (وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، وفي دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: (رب اجعل هذا البلد آمناً)، فمن هذا المبدأ، سن الشارع الحكيم لهذا الإنسان، أحقية التحصين وتوخي الحذر ⁽²⁹⁾.

ولن يتحقق هذا، إلا بتوفير العناصر المساعدة له، كالجند ووسائل الحماية والدفاع؛ ولهذا دعت المصادر الفقهية، إلى ضرورة إنشاء المباني الدفاعية، بل الأكثر من ذلك فقد صنفها الفقهاء، ⁽³⁰⁾ ضمن البناء الواجب، كونها تحفظ، المسلمين في أنفسهم وأموالهم، وهي من مقاصد الشريعة الإسلامية ⁽³¹⁾.

كما يدخل ذلك في إطار دعوة الله تعالى عباده المؤمنين، حسن الإعداد، للتمكين لدين الله في الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...)، فالملاحظ في هذه الآية أن لفظة القوة جاءت نكرة، وهو ما يفيد التعدد، فكان من ذلك القوة في العقيدة، والقوة البدنية والعلمية والاقتصادية وغيرها، وفي هذا المجال قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير). فمن هذا المنطلق، كانت العناصر الدفاعية، من أولى أولويات المعماري المسلم، حيث ظهر الخندق، كأول حرم للمدينة الإسلامية، ثم تلتها الأسوار والأبراج، وذلك حسب موقع المدينة، وكان من ذلك شكل معمار المدن، دالا على استقرارها السياسي والاقتصادي أو العكس، فالمدينة التي تكثر فيها العناصر الدفاعية،

الاستفهام التقريبي عند علماء الإعجاز القرآني

تدلنا عن حالة الاستقرار، أما التي تكثُر فيها العمائر الفاخرة (القصور والرياض) فهي مدينة، آمنة على قوتها، وأهلها.

خاتمة

وصفوة القول فقد كان للنص الديني سطوة، على شكل المعمار الإسلامي، فجاءت بذلك العمارة الإسلامية، تجسيدا للنصوص الشرعية على أرض الواقع، فمن خلال الحديث النبوي (لا ضرر ولا ضرار)، كانت فقه العمارة الإسلامية، وبتأثير من هاته القاعدة، قاعدة منع كشف عورات المسلمين، استلهم تخطيط البيوت الإسلامية، وامثالاً لقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...) جاءت العمائر الدفاعية في المدن الإسلامية، وعلى أساس ديني بحث، صنف الفقهاء المباني الى مايلي⁽³²⁾:

- أ- البناء الواجب: ومن ذلك بناء دور العبادة، وبناء وسائل تحصين المدن (الأسوار، الخنادق...).
- ب- البناء المندوب: كبناء الأسواق والمآذن.
- ت- البناء المباح: ومنه بناء الدور والمسكن
- ث- البناء المحظور: كبناء دور المنكرات (المخمرات، البناء على المقابر...)

نور الدين بن عبد الله

الهوامش

* الدين، النفس، العرض، المال....

1- تاريخ ابن خلدون، طبعة مصححة، أعطني بها : أبو صيب الكرمي، بيت الأفكار، الأردن ، ب.ت.

ص.27

2- أبو نصر الفارابي، أراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه، الدكتور ألبير نصري نادر، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ب ت، ص.117

3- مصطفى بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دار البشائر للطباعة والتوزيع، ط1، 01، 1420هـ/1999م، ص.18

4- ابن منظور، لسان العرب، مج08، ص.233

5- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية القاهرة، ط01، 1999، ص.17

6- ابن خلدون، المصدر السابق، ص.175

7- أبو نصر الفارابي، أراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه، الدكتور ألبير نصري نادر، دار المشرق المطبعة الكاثوليكية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ب ت ، ص.118

8- ابن خلدون، العبر، وديوان...المصدر السابق، ص.27

9- جان اونيموس، الإنسان والمدينة، تعريب، كمال خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1977، ص.5

10- إبراهيم بن يوسف، " إشكالية العمران والمشروع الإسلامي"، مطبعة أبو داود، الجزائر 1992، ص.6

11- علي عبد الواحد وافي، المدينة الفاضلة للفارابي، دار علم الكتب للطبع والنشر، القاهرة، 1393هـ/1973م، ص.26

12- أبو نصر الفارابي، ص.117

13- علي عبد الواحد وافي، نفسه، ص.127

14- جميل عبد القادر أكبر، عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة، بأنظمة العمران الوضعية، مؤسسة الرسالة للطباعة، ط02، بيروت 1995، ص.159

الإستفهام التقريبيّ عند علماء الإعجاز القرآني

- ¹⁵- مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص.19
- ¹⁶- خالد عزب، العمارة الإسلامية، من الصين الى الأندلس، دار الصدى للطباعة والنشر، دبي الإمارات العربية، 2010، ص.15
- ¹⁷- محمد عبد الستار عثمان، المدينة.. ص.29
- ¹⁸- ابن خلدون، التاريخ...المصدر السابق، ص.175
- ¹⁹- المقرئزي، الخطط، مكتبة الآداب القاهرة، الجزء الأول، ب ت، ص.144
- ²⁰- محمود إبراهيم حسين، الأنا الفاعلة في الفن والعمارة الإسلامية، (دراسة في الفكر)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد52، جامعة الكويت1998، ص.210
- ²¹- محمود إبراهيم حسين، نفسه، ص.213
- ²²- يحيى وزيري، العمارة الإسلامية و البيئة، الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، عالم المعرفة، مطابع السياسة الكويت، العدد 304، يونيو2004، ص.95
- ²³- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية....ص.234
- ²⁴- هو عدم مواجهة أبواب المنازل، بعضها ببعض، حتى لا يكشف الخارج والداخل إليها، وقد نظمت أحكام الفقه الإسلامي، عملية التنقيب وفي أي المواضيع من شوارع المدينة تتم، وهي لازمة بصفة خاصة في الشوارع الضيقة.(راجع خالد عزب:فقه العمارة الإسلامية)
- ²⁵- فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول 1970، ص.191
- ²⁶- مصطفى بن حموش، جوهر التمدن الإسلامي، دراسات في فقه العمران، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2006، ص.92
- ²⁷- البقرة آية 251
- ²⁸- الحج آية 41
- ²⁹- خالد فائق العبيدي، المنظار الهندسي للقرآن الكريم، دار المسيرة للنشر عمان، الطبعة الثانية، 2005، ص.144
- ³⁰- سعد عبد الكريم شهاب، أنماط العمارة التقليدية الباقية في صحراء مصر الغربية، دراسة تحليلية مقارنة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط01، الإسكندرية مصر 2009، ص.117
- ³¹- علي حملاوي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية أثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة الجزائر2006، ص.267

نور الدين بن عبد الله

³2- خالد عزب، العمارة الإسلامية، من الصين إلى الأندلس، دار الصدى للصحافة والنشر، دبي 2010، ص.16